الحركة الفلسطينية من بلورة استراتيجية صحيحة تأخذ في حسبانها متناقضات الواقع العربي، ووقعت بعض أجنحتها، في أحايين كثيرة، تحت تأثير شعارات ثورية جوفاء عجلت بصدامها مع العديد من الانظمة العربية: الصدام السياسي مع الرئيس المصري الراحل، جمال عبدالناصر، عقب قبوله لمبادرة وزير الخارجية الاميركية، وليام روجرز، العام ١٩٦٩؛ ثمّ الصدام المسلّح مع الحكومة الاردنية في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠؛ ثم مع الحكومة اللبنانية منذ منتصف السبعينات وحتى الغزو الاسرائيلي للبنان العام ١٩٨٢، الخ. وبالفعل، حتّمت ظروف موضوعية انطلاق الكفاح الفلسطيني المسلّح من الدول العربية المجاورة لاسرائيل، لكن ما كان يمكن لهذا الكفاح ان يؤتي ثماره الاّ في إطار استراتيجية عربية متفق عليها من جانب المقاومة الفلسطينية من ناحية، والدول العربية المعنيّة من ناحية أخرى، حتى لا تؤدي غارات اسرائيل الانتقامية الى شقّ الصف العربي. وأيّاً كان المسؤول عن غياب هذا التنسيق، فان جميع الاستراتيجيات أو السياسات التي تبنّتها جميع الاطراف لم تتمكن من الحيلولة دون وقوع هذه المصادمات العربية ـ الفلسطينية، وابراز حقيقة اختلاف المصالح العربية والفلسطينية، وهو الاختلاف الذي استطاعت اسرائيل ان تدفع به الى حدّ التناقض والصدام.

غير ان الهزائم العربية المتكررة في الحروب النظامية، وتراجع التيار القومي العربي الذي استظل النضال الفلسطيني بظله، والصعوبات التي واجهها الكفاح الفلسطيني المسلّح من خارج اسرائيل، وتوقيع مصر على اتفاقية سلام منفصل مع اسرائيل، ثم دخول العراق في حرب طويلة مع ايران، وبداية ظهور تحولات جوهرية في بنية النظام الدولي، ودخول السياسة السورية الرامية الى احداث «توازن استراتيجي» مع اسرائيل في مأزق بعد وصول الرئيس ميخائيل غورباتشيوف الى السطة في الاتحاد السوفياتي، كلها عوامل أسهمت، بشكل او بآخر، في اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في الارض المحتلة. وممّا لا شك فيه، ان استمرار الانتفاضة الفلسطينية منذ العام ١٩٨٧ وحتى الآن دون توقف أحدث تحوّلاً جذرياً في معطيات الصراع العربي ـ الاسرائيلي على النحو الذي لا بدّ وأن يؤدي الى اعادة حساب مفردات معادلة موازين القوة العربية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي.

ميزان القوى في ظل الانتفاضة

لا جدال في ان اسرائيل استطاعت، على مدى ما يقرب من نصف قرن، ان تزيد من قدراتها وامكاناتها الذاتية على الاصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية كافة، ممّا استطاعت أي دولة عربية منفردة أو حتى الدول العربية مجتمعة ان تحققه. وقد تمّ لها ذلك بفضل كفاءة نظامها السياسي ـ الاجتماعي الداخلي، وقدرته على تعبئة وتوظيف وحشد كل موارد ومصادر قوته في مواجهة التحديات الخارجية، ونجاحه في اقامة علاقة عضوية لا تنفصم مع الاوساط الصهيونية كافة خارج اسرائيل، بما في ذلك الاوساط غير الصهيونية، بالاضافة الى نجاحه في إقامة شبكة كثيفة من العلاقات والتحالفات المبنية على أرضية صلبة من المصالح المشتركة مع أكثر مراكز صنع القرارات تأثيراً في السياسة العالمية. لكن ليس معنى ذلك ان اسرائيل تمكّنت من ان تجعل ميزان القوى الشامل يميل، نهائياً وبشكل حاسم، لصالحها في معادلة صراعها مع العرب. فما زال حاصل جمع القوة العربية يفوق كماً وربما نوعاً، أيضاً، ما تملكه اسرائيل من عناصر القوة. لكن مشكلة القوة العربية تكمن في أن نسبة كبيرة من هذه العناصر تقع، أصلاً، خارج نطاق معادلة الصراع العربي ـ الاسرائيلي. فهناك سلاح عربي يستحيل استخدامه في مواجهة اسرائيل، وهناك مال عربي لا يمكن توظيفه لخدمة أهداف النضال ضد اسرائيل، ونسبة أخرى من القوة العربية القابلة للاستخدام